مقدّمة

نحن فى الحياة أشبه بالزورق الصغير السابح فوق أمواج المحيط الضخمة إذا لم تكن له شواخص وأعلام تهديه طريقه كان قميناً أن يضل السبيل وأن يبتلعه الخضم الهائل المحيط به . فهذه اللانهايات غير المتناهية من الزمان الماضى الذى يثقل كواهلنا . ومثلها من لا نهايات المستقبل الجون لا ندرى سواده من بياضه . ولا نهايات المكان والفضاء المترامية حولنا من فوقنا وأسفل منا ، وما هو محتجب وراء أفق ما أقربه ، أو مختف طى اليبس والماء مما يسهل أن يغيب عنا علمه . ذلك المحيط المخوف الذى يشتملنا ونحن فيه ذرة تافهة لا يعنى بها أينما تحل ولا كيف تتطور ، والذى يشتمل مع ذلك كل ما فى الحياة من معنى ونعيم لا سبيل لنا إلى سلوك لجته ما لم نجد هادياً يسير بنا بين متلاطم أمواجها متقياً مخاطرها ملتمساً سكينتها حتى يصل بنا إلى شاطئ سكينة الخلد .

هذا الهادى هو فطرة الاحتفاظ بالحياة فطرة مركبة فى النفس الإنسانية كما هى مركبة فى النفس الحيوانية بل فى ذرات النبات والجماد . ألا ترى إلى أعواد القصب الرفيعة كيف تنحنى لقاء العاصفة فلا تجىء عليها إلا أن يصبح الانحناء بالغاً غايته ولا سبيل للمزيد منه . ثم ألا ترى إلى كل أنواع الحيوان كيف تسعى لتعيش فى أكثر الأوساط ملاءمة لها . لكن هذه الفطرة التى يبدأ مظهرها الإرادى عند الحيوان على شكل بسيط تنتقل إلى حال من التركيب عند الإنسان يجعل ملاحظتها أكثر صعوبة وأشد للدقة احتياجاً . ولعل ذلك راجع إلى أنا معشر بنى الإنسان نحن الذين نريد ملاحظة فطرتنا . وملاحظة الموجود ذاته صعبة إن لم تكن غير ممكنة . أو لعله راجع إلى أن فطرتنا مركبة حقيقة على اعتبار أنها مزيج مركب من فطرة جميع الخلائق التى يقال إنها دوننا فى مراتب الحياة .

ولو صحت هذه الفكرة الأخيرة . لو صح أن الفطرة الإنسانية هى مزيج

جامع لفطرات الخلائق الأخرى التى هى دون الإنسان فى مراتب الحياة ، ويخيل إلينا أنها صحيحة . إذن لوجب أن تعرف الجماعة الإنسانية فى كل عصر إلى أى نوع من أنواع حياة هذه الخلائق هى أقرب حتى تجعل الغلبة فى اتجاهها الفطرى إلى ما قابل فطرة هذا النوع الأدنى فتكون أدنى إلى الصواب وأبعد عن مواضع الزلل . وقد يكون التاريخ نفسه مؤديا إلى أن بنى آدم اتبعوا بسليقتهم ومن تلقاء أنفسهم هذه السبيل . فكان البدو أكثر أخذاً بفطرة كواسر الوحش ، كما أن العلماء اليوم يعنون بالتنقيب فى عالم الحيوانات الاجتماعية التكدسية كالنمل والنحل ليجعل الإنسان من فطرتها البسيطة هادياً له فى توجيه فطرته المركبة . وذلك لأنه كلما كان الشىء أكثر بساطة كان أكثر فى معركة الحياة سلاما . فلا سبيل للإنسان ، وهو أشد المخلوقات تركيبا وتعقيدا ، إلا أن يسير على هدى السلائق الحيوانية البسيطة .

وليس البحث وراء معرفة الفطرة البسيطة التى تتقابل حياتها مع نوع خاص من حياة الإنسان بالأمر السهل . لأن عقولنا وهى المكلفة بتحمل هذا العناء محملة بميراث ماض طويل مركب مضطرب ، فهى ليست حرة الحرية الكافية لإمكان إلهامها إلهاما صحيحاً . وكثيراً ما يقع لها فضلا عن هذا القيد المثقلة به ، أن تواجه نوعاً مركباً من الحياة الإنسانية تضل فى تكييف مكوناته الأساسية أشد الضلال . ثم إذا صادف أن فتح أمامها شعاع من نور الأمل فى الهداية فكثيراً ما تطمس العقائد والعوائد الحاكمة وما إليها من ميراث الماضى ومن ضرورات الحياة ومن تحكم الشرائع ومن استبداد الحكام على هذا الشعاع فيقع صاحبه إما فى تيهاء الضلال وإما فى لجة سوداء من ظلمة اليأس ، ويذهب ما كان ممكناً أن يلهمه هباء . وأكثر ما يكون هذا الفشل فى تلمّس الطريق لمعرفة أوفق وجوه الفطرة للعيش فى عصر معين حين يكون البناء الجماعى القائم قوياً صلباً لا تهزه ضربات النقد . فى هذه الحال تكون قوة البناء حائلا دون الإلهام الأسمى من أما إذا تصدعت جدران الاجتماع وبدأ الفساد يدب إليه ولم تسحر قوة الحاضر الأنظار عن التطلع إلى المستقبل هنالك يكون للإلهام صدى يزيد أمل صاحبه فى توسيع فرجة يطل منها على ما حوله وعلى ما أمامه ، ويقيس على أثر ذلك نوع الحياة المتوقعة على السلائق البسيطة التى تقابلها . ثم يرسم خطة الحياة فى كلمة

يقولها . فإذا نادى بهذه الكلمة وسمعها الناس اتجهوا صوبها واهتدوا بهديها وساروا فى حياتهم على نورها .

على أن الرسول الذى يلقى الكلمة المرجوة التى توجه الناس وجهتهم فى الحياة للمستقبل لا يظهر فجأة على مسرح الاجتماع . كلا ولا هو ينادى بشىء جديد لم يسمع الناس فى حياتهم به . ولكنه يمركز فى رسالته الآمال والنزعات المبهمة التى تجول فى أنفس المجموع العاجز تحت حمل الوراثة والوسط والتحكم عن تبينها جلية ظاهرة محددة . فإذا سمعها الناس اجتمعوا حولها وتعلقوا بها وبصاحبها لأنها عبارة عن مرآة صافية تعكس صورة ما كان فى نفوسهم مضطرباً . وصاحب الرسالة – وهو أصفى أهل زمانه ذهناً وسليقة لا عن دقة فى المنطق ولكن عن نقاء فى جوهر الذهن وقوة فى العاطفة تدفع إلى الإيمان بالرأى – هو الذى يسير أمام الجماعة ويكون هاديها ومرشدها .

فى تاريخ الإنسانية من هؤلاء الهداة والمرشدين شخوص ظاهرة يقف المؤرخ عند كل واحد منهم وقفة الحادى فى كل مرحلة من مراحل سفرته . يقف عنده فيحلل حياته ويحلل أعماله ويحلل أفكاره وكل ما تعلق أو أحاط به على اعتبار أنه ممثل الجماعة كلها ممن حوله وأنه لذلك صورة التطور فى تمام ظهورها . وإنك لترى فى مراجعة هذه التواريخ أن صور هؤلاء الهداة هى المثال الدقيق الواضح للنزعات التى سبقته أو عاصرته والتى لم تستطع الظهور لضعفها أمام سلطان الجمعية حتى جاء ذلك الإنسان الممتاز فارتفع بروحه وبذهنه فوق متداول مصالح الحياة محتقراً ما قد يضيعه ذلك عليه من المصالح ، عاملا على بناء الجديد أكثر من عنايته بهدم القديم الذى طالما هزت عرشه تلك النزعات فى إبان ظهورها وقبل أن يمركزها رجل التاريخ . حينذاك ترى الجماعة أسرع ما تكون لاتباعه والسير على ما يقرره لها من خطة وسنن .

على أنها كثيراً ما تتردد فى اتباعه بادئ الأمر وكثيراً ما تعرض عنه وكثيراً ما يموت هو قبل أن تثمر فكرته الثمرة المرجوة . لكنه يتحكم بعد ذلك – على حد قول كارليل – فيحكم من قبره الأمم والعصور التى كانت تذره مدى حياته فى ملابسه البالية ولا تكاد تجود عليه بالكفاف يقيم به أوده . هنالك ترى ذكراه ابتدأت تعود إلى الوجود لتجلس منه فى الذروة وعلى عرش الخلود . وهنالك ترى

الصور والتماثيل والمقاصير والمحاريب تقام ذكراً له واحتفاظاً بأثر من آثاره . وما كان أحوجه أيام حياته إلى بعض مما ينفق فى هذا السبيل يحفظ به على نفسه نعمة العيش .

من هؤلاء الهداة جان جاك روسو . فقد خرج هذا الطريد من منبته فى سويسرا ، وعلى دين آبائه البروتستانتيين ، إلى فرنسا مقر عظمته ومهبط أفكاره ، وللكثلكة دين مدام دفارنس التى التقطته وربته أيام تشرده وبؤسه . وبعد أن ظل أربعين سنة يعالج الفقر والفقر يقعده ويطرق أبواب التعليم والموسيقى وخدمة الحكومات المختلفة من غير نجاح أو توفيق إذا به نطق فى أول خطاب ألقاه بكلمة كانت تتردد فى الصدور وتقف فى الحناجر. تلك الكلمة هى القيامة فى وجه الترف . ونطق بها صريحة قوية مرعبة حتى اهتزت لها عروش الأغنياء والمترفين هزة عنيفة بعد ما كانت قد واجهت غيرها من الصيحات الضعيفة المستحيية بشىء غير قليل من الثبات والطمأنينة . وعقب على كلمته هذه بكلمة فى المساواة طعن فيها نظام ذلك العصر ونادى :

« إن الملكية الخاصة والترف والإمعان فى الشهوات هى سبب كل التعاسات المكدسة التى تقع على رءوس ملايين الفقراء . والتى يحتملها الشعب لما طال إيهامه أنها أصلح الأنظمة للوجود الاجتماعى . وإنه لا سبيل لتخلص الأغلبية من هذا الشقاء إلا بعودة الإنسانية إلى حالتها الطبيعية » .

هذه هى الفكرة القائدة فى كتب روسو كلها . وعلى أساسها وجه النقد المر لما اعتقده خروجاً على الطبيعة من علوم وفنون ومناظر وملاه وسوء تربية الناشئة وتحكم الاستبداد فى رقاب البشر . وعلى أساسها كذلك وضع قواعد الإصلاح التى اعتقد وجوب الأخذ بها لإسعاد الإنسانية . على أن فكرته فى الإصلاح لم تكن فكرة تدريجية تبدأ عند الأنظمة الحاضرة وتسعى لتحويرها رويداً رويداً فى اتجاه معين ، ولكنها كانت فكرة متطرفة ثورية ترمى إلى هدم نظام وإقامة نظام جديد على أنقاضه . ويجب أن يقوم هذا النظام الجديد على مقتضى إلهام الطبيعة ووحيها . والعيش على مقتضى الإلهام الطبيعى هو هذا العيش البسيط الذى كان الناس يعيشونه حين كانوا لا يزالون قبائل لا تعرف الملكية ولم تندس بينهم الفوارق الاجتماعية .

لتهدم نظم التربية إذن من أساسها ليحل محلها نظام طبيعى قائم على فكرة استقلال الفرد فى حكم البساطة الطبيعية . ولتهدم النظم السياسية المبنية على أساس من الأثرة والملكية الخاصة والتحكم والاستبداد ، لتحل محل ذلك كله الجمهورية الاشتراكية القائمة على أساس من التعاقد الحر بين جميع أفراد الاجتماع . ولتهدم كل الفوارق الصناعية التى أقامها التحكم والإرهاق بين الناس . ولتكن الفطرة الطبيعية هى القائد والمرشد فى كل حال .

هذه هى الفكرة الأساسية التى صدر عنها روسو وعليها رتب الحياة الفردية والحياة الاجتماعية . وهذه هى الفكرة التى استفزت النفوس ووجهت الأمة الفرنسية حين ثورتها الكبرى فى سبيلها ، فرسمت لها خطتها ووضعت لها أسلوباً وقررت لها أنواع لهوها وأنظمة حكمها . على أنها لم تكن فكرة روسو خاصة ، بل نادى بها من قبله كتّاب ذوو مركز ومكانة . ولكنما خلدها روسو وخلدت هى اسمه بصيغة تحريرها وأسلوبها الكتابى . فهى صادرة من قلب روسو وتصوره أكثر مما هى صادرة عن رويته وتفكيره . وهى لذلك تخاطب القلب والخيال بقوة وحرارة وثورة تدفع إليهما من الإيمان والإذعان ما يخضع معه الفكر ويستسلم له اللب . ذلك ما يشعر به الإنسان حين يقرأ روسو على بعد عصرنا عن عصره واختلاف وسطنا عن وسطه . ما بالك إذن بشعور أهل القرن الثامن عشر الذين كانوا يقاسون الضغط والإرهاق وأبشع أنواع التحكم والاستبداد . لهذا لم يلبثوا حين انفجر بركان الثورة أن اتخذوها إنجيلا لإيمانهم السياسى .

إلى جانب ما تتركه هذه الكتب من الأثر فى النفس بما تثيره من الأفكار يجب ألا نغفل ما تبعثه إليها من اللذة الرقيقة أو الهزة القوية على حسب تموجات أسلوبها الكتابى . فقد قضى روسو حياته موسيقياً قبل أن يكون كاتباً . فلما انتقل إلى حياة الأدب والتحرير لم ينس التجاوب الموسيقى فى أسلوبه . وكان كلما ازداد تقدماً فى السن وفى المكانة ازداد هذا التجاوب جمالا وإبداعاً حتى لتجده وقد بلغ الذروة منهما فى كتابيه الأخيرين « الاعترافات » و« أحلام المتنزه المنفرد » . وبهذا الأسلوب الموسيقى الوجدانى الممتاز وبنغمات تستهوى الفؤاد توقع عليها أقوى الأفكار وأسماها وأبدعها سالت الكتب القليلة التى تركها جان جاك فترك بها ميراثاً خالداً يتشارك فيه أهل هذه الأجيال والأجيال التى بعدها إلى أن ينقلب

نوع الحياة الذى نعرف انقلابا ليس فى مقدورنا توسمه . وقد ربا هذا الميراث ونما وزاد بكثرة استغلاله ، وبحسن القيام عليه ، ونفى قليل ما فيه من الخبث وحسن تفهم الطيب العظيم الكثير الذى يحتويه .

وهذا الميراث هو النور الذى يبين لنا فى خلال دياجير المستقبل الوجه الأصح من وجوه فطرتنا الإنسانية المركبة الذى تكون هدايته لنا أضمن لسعادتنا فى الحياة أو على الأقل أضمن لاحتمالنا فترة الزمن التى نمرّ فى أثنائها بأقل ما يمكن من الشقاوة والألم .

ولست أريد فى الصحائف القليلة التى أعرض بها حياة روسو وكتبه فى هذا الجزء والجزء الذى يتممه أن أعرف إلى أى مقدار أخذت الإنسانية بهدى آراء المرشد ولا إلى أى حد زاغت عن نور أفكاره . ولكنى كمصرى أولا وكشرقى ثانياً أريد أن أعرض على أبناء مصر والشرق صورة من قوة حيوية قامت فى الغرب لعل فى عرضها ما يجعل الصلة بين الشرق والغرب ممكنة على أساس التفاهم الحر المخلص لا على مجرد القوة الغاشمة المتحكمة بتعرف وجوه شبه ولو قليلة بين أبطال هناك وهنا تجعل المشابهة الظاهرية فى الوجود الإنسانى بين جميع سكان المعمورة دليلا على إمكان المشابهة الروحية والعقلية التى هى فى جوهرها أساس المساواة القائمة على المودة والتجاذب .

يجب أن أفسر ما أريد . قال كاتب غربى من شعراء الإنجليز : « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » . ولقد يكون فى التاريخ مصداق لهذه الكلمة . فقد رأينا دائماً شيئاً من الخلاف غير قليل بين فلسفة كل ناحية من هاتين الناحيتين للوجود . فالشرق المضيء المشمس الخصب الجواد أبو المدنيات والديانات الأولى والزاهد فى نعم الحياة لكثرة ما تغصه هذه النعم بوفرتها وكثرتها لم يلتق يوماً مع الغرب ملتقى الأخ بالأخ والصديق بالصديق ، ولكنهما كانا ولا يزالان كلما تلاقيا كانت أيديهما شاكية السلاح أو شفاههما تنم عن ابتسامات الغدر والخديعة . والفكرة التى تعلن فى أحدهما سلاماً وسعادة للإنسانية تنقلب فى الآخر دماً وموتاً زؤاما . وهل ترى المسيحية الزاهدة بنت الشرق الخصب . هل ترى هذه الديانة البديعة سداها ولحمتها المودة والحب والتسامح . هل تراها تنبت ما أنبتت فى الغرب من كراهية وغل ودم ونار وموت إلا أن تكون طبيعة هذا الغرب متنافية

مع الموض الذى أنبت هذا الدين الجميل . والغريب الذى لا نجد له تفسيرا إلا من سخرية الأقدار وطبيعة التناقض الإنسانى أن هذه الديانة البرة المتسامحة هى وحدها التى تبقى فى الغرب موضع النضال والنزال الدائم .

على أن بقاءها وحدها فيه وبقاء الديانات الأخرى فى الشرق ، وعدم ملابسة الأديان جميعاً ومخالطتها بعضها لبعض هو مصداق الكلمة السابقة : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا . وكيف يلتقى قوم من طباع متخالفة مقدار اختلاف طبيعة هذه الأقطار وأجوائها . كيف يلتقى الشرقى القانع السعيد فى أحضان الطبيعة الكريمة الطقس والجو والمنبت بالغربى العائش بين الجبال والثلوج والزمهرير وعاديات الطبيعة . حقاً إنهما من جنس واحد وطينة واحدة وذوى طبائع متقاربة . لكن الجنس يحتمل أنواعاً والطينة تأخذ أشكالا واختلاف الطبائع لا يتنافى مع تقاربها . ولن يكون تلاق بين أفراد الجنس ولا اتفاق فى أشكال الطينة إلا إذا بلغ من تقارب الطبائع أن تطابقت . وليس التطابق محالا فى عالم النظر الاجتماعى ، ولكنا بحاجة إلى عصور تمر وتفاهم دائم ومودة متبادلة وإخاء صحيح ومساواة عادلة ليمكن ذلك التطابق . ومن أدوات ذلك نقل الأفكار المتبادلة فى مختلف الأقطار نقلا أميناً صحيحاً ووصف حياة الأبطال الحداة وصفاً دقيقاً بعيداً عن كل تحيز . وربما كانت هذه الأداة ، من بين الأدوات الكثيرة الواجب توافرها لتمام التطابق ، هى التى لجأ إليها الكتّاب والعلماء من أنصار السلام ، ولكنها من غير نزاع لا تكفى وحدها للوصول إلى هذه الغاية الشاقة العظيمة الراقية التى هى منتهى أمل الإنسانية .

هذا إذن هو الدافع الذى حدا بى لبحث حياة روسو وكتبه ، ولكنى فوق ما قدمت لا أدعى استطاعة القيام بهذا البحث على وجه كامل . أولا لأنى لم أتخصص له وإنما هويته فأخذ منى وقتا ومجهودا كانا من خير الأوقات والمجهودات التى أنفقت فى حياتى . فلم أشعر معهما بألم ولا بملال بل كنت أتنقل من تذوق أنواع من اللذة ، وأشعر فى أعماق روحى بدسم ما يصل إليها فى أثنائهما من الغذاء . ولكنى على كل حال لم أتخصص . والبحث الكامل لا يتأتى إلا بالانقطاع والمزاولة والإمعان وطول التفكير فى الساعات والأيام والأشهر المختلفة ، وعند مراجعة المؤلف ومن كتب عنه من الكتاب الكثيرين جداً . وإذا كنت قد

قرأت كتباً كثيرة فهى على كل حال قليلة إلى جانب ما كتب أو أخذ عن روسو . على أن ما وجدته من الفائدة واللذة فى مطالعتى وبحوثى وحرصى على وضع شيء مهما يكن قليلا فى البناء الواجب إقامته لإحكام روابط إخاء الإنسانية وإزالة الفوارق والحدود الدولية والطبيعية والفكرية هو الذى دفعنى لأجترئ على القيام بوضع هذا الكتاب .

وقد كان ما حبب إلىَّ روسو وجعلنى أميل إليه بنوع خاص أمران : الأول طريقة فى التفكير تكاد تكون شرقية . والثانى شخصية المفكر الذى خلد على الدهر على ما كان عليه من فقر واضطراب نفسانى يقارب الجنون ، وعلل وأمراض ونقائص لا حد ولا نهاية لها . وفوق هذا وذاك حببه إلىَّ فكرة سامية قائمة على أساسين متينين من العدالة الاجتماعية والإيمان بالعمل .

فأما طريقته فى التفكير فتكاد تكون شرقية لأنها نوع من إجلال الطبيعة والإيمان بأنها مصدر الخير وأصل نعمة الحياة والحياة الناعمة وبأن ضمان السعادة فى القناعة بما تهبه وحسن عرفانه والمتاع بمعناه أكثر من المتاع بمادته . ولو أنك رجعت إلى كبار المفكرين فى الشرق ومن جاءوا بالأديان من رسله وأنبيائه لرأيت هذه المعانى متجلية عندهم مع هذا الفرق دائماً ، وهو أن روسو يدعو إلى القناعة والتنعم فى حين يرى الأكثرون من رسل الشرق وجوب التخلى عن كل نعمة والانقطاع والترك والجهاد للخلوص من نير الحياة الدنيا على أمل الخلود هناك فى الحياة الآخرة .

ولا شك أن روسو كان جريئاً فى تأييد إيمانه هذا . فقد كان فى وسط جمعية مترعة بالترف متمرغة فى حمأته مؤمنة به إيمان المجوسى بناره والوثنىً بصنمه . فالقيامة فى وجه هذا الإيمان تقتضى قوة فى النفس وجرأة وإقداماً لم تتوافر للأكثرين ممن سبقوا روسو لمواجهة هذه الحقيقة فكتموها فى أنفسهم . والباقون ممن استطاعوا إعلانها أعلنوها فى استحياء وضعف فدرت ولم يعن بها أحد ولم يهتز لها إنسان .

وهذه الجرأة فى إعلان الفكرة هى التى خلدت اسم روسو لاقترانه بها . وهل خالد على الحياة غير الفكرة ، بل هل لغير الفكرة حياة . لقد فنى روسو وفنى ڤولتير وفنى روفائيل وفنى بتهوفن ، ولقد فنى من قبلهم كبار الفلاسفة والكتاب

والأنبياء ، ولكن اسمهم جميعاً بقى خالداً لأنه اقترن بالفكرة الخالدة فى مظاهرها المتعددة ، خلدوا على الحياة لأن الفكرة وحدها هى الحياة ، الفكرة هى القوة المنظمة للعالم والمسيطرة عليه والمحتلة كل ذرة من ذراته والممسكة بمظاهره المختلفة فى دقيق نظامها وبديع أحكامها ، هى الروح التى تحمل الحياة والوجود والأزل والخلود ، أما المادة فلباس كثيف كثير التحول والاضطراب توجهه الفكرة كما تشاء وتوقفه حيث تريد .

ولا شك أن روسو مثل من الأمثال العليا ومظهر من مظاهر الفكرة الحية الخالدة ؛ فهذا هو أمام أهل عصره متشرد وضيع محكوم عليه بالبؤس وبفساد الخلق وبالأمراض التى لا تنفك تعكر صفو الحياة ، ثم ها هو ذا رجل يعيش لا من وراء الفكرة التى كانت تهزل جسده النحيل ولكن من عرق جبينه لنقل نوت الموسيقى ، ثم ها هو ذا يموت يائساً مشرداً ضال الصواب طائر العقل ، ولكن جسده النحيل كان يحوى قلباً عظيماً وحياته الفقيرة كانت فى قيادة عقل غنى . لذلك ارتفع بقلبه وعقله على أن يخضع خضوع السواد إلى حكم المادة وأن يفنى تحت أحمالها وأثقالها وحلق بهما فى جو الفكرة جو الحياة والقوة فحكم العوالم والوجود واستحق نعمة الخلود .

وإنى أناشد القارئ أن يرجع البصر إلى التاريخ هل يرى لمظاهر المادة عليه من بقاء ، بل هل لهذه الأسماء الضخمة من أسماء الملوك والقياصرة وقادة الجيوش ورجال السياسة التى اغتصبت على الزمان حق البقاء من معنى فى الحياة أو أثر ؟ هذا نابليون أبو الغزو والفتح وصاحب الصولة والسلطان ، ماذا بقى من أثره فى فرنسا . اسم يشاد به ولا أثر فى الحياة الخالدة له . وهذا بسمرك داهية سواس العصر الأخير لم يمض على موته نصف قرن حتى انهار صرح ما شاد ودكت قوائمه . ذلك لأن هؤلاء الرجال كانوا يعنون بقوة أشخاصهم لا بقوة الحياة الخالدة الماثلة فى الفكرة الصحيحة التى تحكم العالم فى مختلف عصوره وأجياله ، كانوا يحسبون أنفسهم محور الوجود فإذا هم فيه ذرات فانية ، وكانوا يمجدون أنفسهم مدى حياتهم فإذا انقضت حياتهم انقضى مجدهم . أما المسيح ومحمد وشكسبير ورفائيل وروسو فكانوا يعلمون أنهم فى عالم المادة ذرات فانية ، ولكن هذه الذرات كانت تحوى قوة الفكرة فلما اندمجت فيما سواها من مثلها

تخلصت تلك القوة التى كانت تنقصهما فانضمت إلى القوة الكبرى المحركة للعالم وللوجود من أزله إلى أبده .

والعجب أن يكون ذلك شأن روسو وهو القائل بأن التفكير أقتل الأمراض للجماعات ، لكن التفكير فى طبيعة الحى الإنسانى بل هو حياته . ولولا الفكرة العامة ولولا التفكير لهلك الجنس فى مهده . لذلك لم يكن روسو يقصد بكلمته معناها الظاهر ، ولكنه كان يرمى بها إلى معنى قام بوجود جمعية عصره وساقها إلى الابتعاد عن الفكرة الطبيعية الطيبة الصحيحة القوية الحية وأوقفها أو كاد على هاوية من هاويات الفناء مزينة بزخرف الترف مما يفتّ فى حياة الإنسانية ويسوقها فى سبيل الضعف والتخاذل إلى المذلة ، ثم إلى الزوال . لذلك كان واجباً أن نستدرك أن الفكرة الخالدة والتى تخلد صاحبها هى الفكرة الحية الصحيحة وليست أى فكرة وإن آذنت بزوال الآخذين بها .

ولعل أبدع ما فى فكرة روسو نزعته إلى الفضيلة القائمة على أساس العدالة الاجتماعية . فقد كان بطل المساواة والداعى لإزالة الفوارق الظالمة بين الناس . ولعمرك هل رأيت ظلماً أفدح من الظلم القائم عليه نظام ذلك العصر والذى لا يزال نظام عصرنا الحاضر قائماً عليه إلى حد كبير . يقولون إن القاعدة الأساسية القائمة عليها جمعيتنا الحاضرة هى الحرية المطلقة . ولسنا ندرى أى شىء يراد بالحرية المطلقة ولا أين هى فى العالم الذى نعرفه . هل الحرية المطلقة تكون للطفل يوم يولد ؟ وهل تكون له فى السنين الأولى من حياته . ما نحسب أحداً يقول بهذا الرأى ، ومع ذلك فالسائد أن يترك الطفل لعناية أبويه سواء أكانا من الأشرار أم من الأخيار ، وهما اللذان يقدمانه للحياة . ويومئذ . يوم يملك الطفل الذى شب وترعرع حرية العمل . إذا به يجد حريته مقيدة من كل جانب ، ثم إذا به يرى نفسه وقد قذف به فى ميدان الحياة ولا سلاح له ليحارب ويناضل من سلحتهم الحياة بأقوى الأسلحة . فتراه جاهلاً . وفقيراً . ومريضاً . وتعيساً ينزل ليقف فى صف المجاهدين أمام المتعلمين ، والأغنياء ، والأقوياء ، والسعداء ، ويقال له يومئذ أنت حر وهذا هو الميدان أمامك فتقدم ولك ما تحوزه بفضل جهادك ، ومع ذلك نرى من ينادى لنا بأسماء الإخاء والمحبة ، والتضامن ، بين أهل هذا الميدان المتنافسين التطاحنين يفتك قويهم بضعيفهم وغنيهم بفقيرهم وحاكمهم

بمحكومهم ما دامت حريته مطلقة فى هذا الفتك ، أى ما دام القانون لم يرتب عليه قصاصاً .

هذا لعمر الحق هو الظلم وهو الاستعباد الصارخ فى أبشع أشكاله ومظاهره ، ولا شيء يضمن زواله إلا أن تطبق قواعد العدالة الاجتماعية بأن تكفل الجمعية الأطفال فتسلحهم جميعاً بمعدات الحياة من صحة طيبة وتعليم صحيح وإعداد للسعادة والنعمة ، حتى إذا دخلوا إلى الميدان لم يكونوا عزلاً من السلاح بل ومما يدافعون به عن أنفسهم . وما دام الناس جميعاً مسلحين بقوة الحياة الصحيحة على نحو ما يقضى به العصر الحاضر كان تشابههم وتكافؤهم من أقرب الدواعى التى تقرب فيما بينهم وتجعل العلاقات التى يمكن ترتيبها علاقات محبة وتضامن وتعاون لا علاقات إذلال وإشفاق واستعلاء ومرحمة . وعندى أن هذه الفضائل التى نسمع أسماءها اليوم : الرحمة ، والجود ، والإحسان ، وأمثالها ، ليست هى إلا من خلق مدينتنا الظالمة التعيسة التى تريد أن تستدر رحمات الظالمين بدلا من تقوية روح التضامن عندهم ، والتى تريد إلى جانب ذلك أن تهدئ المظلومين المكروبين ليظلوا فيما هم فيه من بؤس ثم لا يثورون .

ولن تتحقق هذه العدالة الاجتماعية إلا إذا قامت على أساس متين من الإيمان بالعمل . إن الإله الحاكم اليوم والذى تعنو له الوجوه وترتعد أمام سلطانه الأفئدة وجلا إنما هو عجل الذهب ، وقد بلغ الإيمان به أن أصبح الاعتداء عليه داعية أشد العقوبات . بلى . فأنت إذا اعتديت على شخص أو على عاطفته أو على شرفه فإن القانون لا يعاقبك إلا بما يشفى غل من اعتديت عليه . أما إن أنت اعتديت على المال فلك الويل من عقوبات هائلة تنصب على رأسك .

هذا لا شك نظام تعيس . هذا نظام يزرع فى النفوس التنافس لا على الفضيلة ولا على الكرامة ولا على الحرية ولا على الحق ولكن على المال . والتنافس على المال أساس كل تعاسة ومصدر كل جريمة وداعية كل ظلم . وما دامت عبادة الذهب هى الصورة البارزة لإيمان بنى آدم فستبقى التعاسات وكل الجرائم وكل المظالم . أما إذا انقلبت الحال وأصبح العمل هو موضع العبادة والإيمان به هو الإيمان القائم فى أعماق القلوب وكان كلٌّ يجزى بمقدار عمله وكان العمل يحمى المال اليوم وكان الاعتداء عليه ينال الجزاء القاسى : إذا وصلت الإنسانية من التطور

نحو الرقى إلى هذا الحد فأذّن فى الناس بانقضاء القسم الأكبر من تعاساتهم وجرائمهم وظلمهم .

ليس هنا موضع عرض فكرة العدالة الاجتماعية القائمة على عقيدة الإيمان بالعمل ولا هذا مكان شرحها وتطبيقها ، وإنما أشرنا إلى الفكرة لأنها من بعض الأفكار التى سبق روسو بالإشارة إليهاوإن لم يحللها ، ولما كانت هذه الفكرة هى عندنا التى تقابل تلك الفطرة التى تلتئم مع نوع حياتنا الحاضرة أكثر الالتئام فلم نر بدًّا من الإشارة إليها فى هذه المقدمة الوجيزة .

وإنا الآن نترك القارئ يستعرض حياة روسو وبعضاً من كتبه فى هذا الجزء راجين أن نكون قد قدمنا لقرائنا وشبيبتنا مثلا من أمثلة العظمة الفكرية المرتبطة بحياة الكون العليا .

محمد حسين هيكل

obeikandl.com